مراجعات

سميح القاسم ، مراثي سميح القاسم ، (دار الآداب ، بيروت ، ١٩٧٣)

في « الموت الكبير » رسم سميح القاسم دائرة تحركه الشعري . فلقد استطاع ان يجمع تجربته الشعرية كلها . وان يعيد صياغتها في توقيعات غنائية ، يقصد رسم الحلم الفلسطيني من خلال التركيز على مفاصل المعاناة الشعبية ، عبر استعارات واسعة من الغناء الشعبي وعبر الاحاطة بالموضوعات الكبرى ، الموت ، الحزن ، النضال .. غير ان دائرة القاسم الشعرية بقيت ضمن الاطارات التي رسمها الشعر القادم من الارض المحتلة . فالتجربة الشعرية هي عبارة عن تلخيص مكثف لعلاقة الشاعر بشعبه عبر التركيز على العلاقة بالارض بوصفها الرحم والنعش في آن معا . تجربة القاسم الشعرية فعل ايمان بالجماهير . فالشعر ليس زخرفا يعيش على هامش ممارسة الحياة . انه عودة اصيلة الى الجذور . فالشاعر ، يريد أن يستجمع جميع اوتار الوعي الشعبي ليضرب عليها تقاسيمه الخاصة . انه ارادة اندماج بحركة الجماهير ، بحياتها الواقعية ، حيث يعود الشعر الى القبيلة تعبيرا عن مصلحتها الجماعية ورقصا احتفاليا امام أحداث الكون الكبرى . من هنا ينكسر الشعر امام الواقع . وتصير اللغة هي الام التي تدور حول ثديها حركة الاطفال دورة لا تنتهي . على هذه القاعدة كانت العلاقات داخل القصيدة الواحدة ومن خلال مجموع القصائد مكشوفة وغير متعرجة. فالخطوط تتوازى او تتقاطع لكنها لا تتشابك . فالواقع حين يعود وينغرس في القبيلة يصبح بسيطا وشفافا . ولا حاجة الى تفسيره . ودخول الشعر عالم الواقع ليس محاولة لتفسير هذا الواقع او للنسج حوله . انه يدخله كي يعيش في وسطه بكل بساطة .

حول هذه القاعدة صار لشعر الارض المحتلة هذه الشعبية الكاسحة . فالجماهير الخارجة من هزيمة حزيران عادت لتكتشف وعبر المقاومة الفلسطينية احساسها القومي « الصافي » . ورأت في المقاومة طريقا الى القتال الذي حرمت منه طويلا . فجاء الشعر الفلسطيني ليعبىء فراغا احدثه ضمور الحركة الشعرية الحديثة وتراجعها في عملية بحث عن الذات ليس الان مجال دراستها او تقييمها . فكان الشعر الفلسطيني هو شعر الواقع الجديد وهو صوت المرحلة الثورية الرومانسية الوليدة . غير أن الاندفاعية الجماهيرية سرعان ما بدأت تصطدم بعقبات جدية. وسرعان ما بدا ان الواقع الذي اعتقدناه واضحا عشية حزيران هو اكثر تعقيدا مما تصورنا . وأن ثورة الشعب الفلسطيني لا بد لها من تفهم العلاقات التي تعيش وسطها كي تستطيع تجاوز حقول الالغام المزروعة امامها. هكذا كان الشعر الفلسطيني مواجها بمصيره الفني . فالدائرة التي رسمها سميح القاسم سرعان ما بدا ضرورة تجاوزها . فالواقع المعقد يرتسم في الافق والشعر لا يستطيع ان ينسج نفسه خارج دائرة الواقع وعلاقاته . واذا كانت القصيدة فعلا تاريخيا بمعنى انها ترصد اكثر الروافد عمقا في حركة الواقع ، فان خطابية المرحلة الاولى بدأت تتفتت . وبدا أن الشعر يستطيع ان يكتشف لنفسه دورا خارج التحريض المباشر .

و « مراثي سميح القاسم » هي محاولة لكسر الدائرة هذه . فالقاسم يتخلى عن خطابيته القديمة. ليعتلي عرش النبوة المأساوية مستعيرا صوت مأساوية المدو في « مراثي ارميا » وطارحا صوته الذي ينتظر الميلاد . ففي نهاية مراثيه يرفع القاسم صوته لينتظر الميلاد :

« الاضواء الاقدام الاجراس
الصحف الالات الموسيقى